مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية و آدابها، فصلية محكمة، العدد ٢٠، الخريف ١٣٩٠هـ.ش/٢٠١١م صص ٤١- ٦٠

الفكاهة و الهزل في آثار ابي حيّان التوحيدي

مهدي عابدي[١]، عبدالغني ايرواني زاده[٢]، نصرالله شاملي[٣]

الملخص

إنّ الفكاهة قصة مترامية الاطراف، ربّما جاءت صدىً لما حفّت به حياة الانسان من آلام و محن و مصائب و ليس من شكّ في أنّ النفس المعذّبة كثيراً ما تلتمس في الهزل و الفكاهة ترويحاً و تنفيساً عن نفسها، فلا تكون الفكاهة بالنسبة اليها سوى منفذ للتّنفيس عن آلامها و محنها، و الفكاهة عند ابي حيّان التوحيدي ليست الّا أداة للتهرّب من الواقع الذي كان ينوء بحمله و يثقل على كاهله.

إنّ جملة النّوادر التي رواها التوحيدي عن لسان النساء لا تخرج عن كونها مجموعة من الفكاهات المجونية التي يقبحها الذّوق السّليم و ليس سبب الإتيان بها الّا لأنّه كان مكبوت الغريزة الجنسيّة و ذلك بحكم فقره و تقشّفه الجبري و لم يكن يري فيها سوى مجرّد«موضوع جنسي» و أداة للمتعة!

أمّا الفكاهات التي يرويها التوحيدي عن الأطفال و عن لسانهم فإنّها أكثر طرافة و أبعث على الضّحك؛ لأنّها تكشف لنا عن منطق الطّفولة بمفارقاته العجيبة.

إنّ التوحيدي كان مولعاً بالنّكات العقلية و النوادر اللفظيّة، خصوصاً ما كان منها شاهداً على ذكاء صاحبه و سرعة بديهته و براعته في الردّ.

و من النّوادر التي كان يعنى به التوحيدي، ذكر فكاهات عن ألسنة البخلاء و الطفيليين و أصحاب الشره و البطنة الذين حكى نوادرهم مرشده، الجاحظ في بعض ملامحه.

الكلمات الرئيسية: الفكاهة، الهزل، ابوحيان التوحيدى.

١.طالب في مرحلة إعداد رسالة الدكتوراه في جامعة اصفهان.* mehdiabedi90@yahoo.com

٢ . أستاذ مساعد في جامعة اصفهان

٣. أستاذ مشارك في جامعة اصفهان.

تاريخ استلام البحث: ٨٩/٣/٩ تاريخ قبول البحث:٨٩/١١/٢٤

سابقة البحث

موضوع الفكاهة من الموضوعات القديمة في الأدب العربي يرجع تاريخه الى العصر الجاهلي؛ لأنّ النفس الإنسانية تحتاج بالضرورة الى الترفيه و التفكّه في أوقات معينة؛ لذلك نجد أن الكثير من الادباء تطرّقوا الى هذا الموضوع للتّرفيه عن أنفسهم أو للتّرفيه عن نفس المتلقّي عند قراءة أدبهم.

إنّا لكتب الحديثة التي عالجت موضوع الفكاهة غالباً ما تكتفي بالإشارة الى وجوهها و غزارتها في الأدب العربي، فكأنها تحاول نفي تهمة العبوس عن هذا الأدب بإيراد فكاهات الطفيليين و الظّرفاء و غيرهم.من هذه الكتب كتاب«أدبنا الضاحك»لعبد الغني العطري، تعرّض فيه صاحبه للفكاهة عند العرب منذ أول عهد الاسلام حتى العصر الحديث و لم يتطرّق الى دلالات الفكاهة النفسية و الاجتماعية و الاقتصادية.

و كتب الدكتور صلاح الدين المنجد كتاب«الظرفاء و الشحّاذون في بغداد و باريس» و عرض فيه لسِيَر ظرفاء العصر العباسي و أزياءهم و مجالسهم، و من الكتب التي تناولت موضوع الفكاهة و الهزل كتاب«جحا العربي»للدكتور محمد رجب النجّار تعرّض فيه لشخصية جُحا التاريخية ثمّ للرّمز الفني لهذه الشخصية، كما توسّع في التعليق على النقد السياسي و الاجتماعي من خلال فكاهات جحا و ما كانت تحفل به من رفض الواقع و ربما كان كتاب«الفكاهة في الادب؛أصولها و انواعها» للدكتور احمد محمد الحوفي من أهمّ ما كتب عن أنواع الفكاهة؛ إذ تضمن تسعة عشر فصلاً، و أورد نماذج كثيرة لأنواعها، و جعل لكلّ نوع فصلاً خاصاً به، و في كتاب «سيكولوجية الفكاهة و الضحك» يورد الدكتور زكريا ابراهيم آراء كثير من علماء النفس الغربيين حول الضحك و الفكاهة و يتعرض لمشكلة تعليل الضحك و عناصر الوجدان و التروع و الإدراك في الضحك.

المقدمة

إنّ أدب الفكاهة من الآداب الشيّقة و الممتعة و لا يمكن أن نتصوّر العالم من دون فكاهة أو نتصوّر الحياة عابسة دائماً مكفهرّة الوجه أبداً، و إذا كانت الحياة على هذه الصورة فمن الذي يمكنه أن يطيقها و يرضى بها. إنّ الحياة بغير ضحك، عبءٌ ثقيل لا يحتمل و كما قال

الرسول(ص):(روّحوا القلوبَ ساعةً بعد ساعةٍ فإنّ القلوبَ إذا كلّت عَميت) (پاينده١٣٨٢، ص٥٠٥).

إذن فالفكاهة ترويح للقلوب و لذا فقد انتشرت على مرّ العصور و التاريخ الأدبي عند شعوب الأرض و لحاجة الفرد و المجتمع إليها و لأهمّيتها في حياة الناس، و الفكاهة تسبّب الضّحك، و الضّحك حسب ما توصّل اليه العلم الحديث، يعيد الى الأنسان أنسه و أمله و طبيعته، بل إنه يؤثّر في شفاء بعض الأسقام التي أصابت عالمنا المعاصر؛ و لذلك كانت الفكاهة تطغي في كثير من الأحيان على المحن التي تمرّ بها الشعوب، و قد ظهر في الأدب العربي كتّاب اشتهروا بالأسلوب السّاخر كالجاحظ و أبي دلامة، بل إنّ الفكاهة كانت تعرض نفسها حتى على الكتّاب الذين التزموا بالجدّ و تناولوا موضوعات في غاية الجدّية كما نرى ذلك في«عيون الاخبار» لابن قتيبة و«الامتاع و المؤانسة» لأبي حيان التوحيدي؛ أديبنا الذي نحن في صدد بيان فكاهاته و نوادره.

قد يعجب القارئ حين يرانا نتحدّث عن الفكاهة و الهزل عند التّوحيدي؛ لأنّه أشتهر بالتشاؤم و النظرة السوداء الى الحياة و قد يتبادر الى ذهن البعض—لأوّل وهلة— أنّ هناك تبايناً و تناقضاً صارخاً بين نسبة روح التشاؤم الى فيلسوفنا العربي من جهة و تسميته «بفيلسوف الفكاهة» من جهة أخرى.

و لكننا إذا عرفنا أنّ الانسان ليس «حيواناً ضاحكاً» لأنّه أكثر الموجودات على الأرض شقاءً و أعمقها ألماً، أدركنا أنّ جنوح التّوحيدي الى الفكاهة و الهزل لم يكن ألا مجرّد صدى لما حفّت به حياته من آلام و محن و مصائب. و ليس من شكّ في أنّ النفس المعذّبة كثيراً ما تلتمس في الهزل و الفكاهة ترويحاً و تنفيساً عنها، فلا تكون الفكاهة بالنسبة اليها سوى منفذ للتّنفيس عن آلامها و محنها، و لا تكون النّادرة و الفكاهة عندها سوى أداة للتهرّب من الواقع الذي تنوء بحمله و يثقل علي كاهلها، إذن فانّنا حتي لوسلمنا مع بعض الباحثين بأنّ«حياة أبي حيّان كانت ملأى بالتزمّت و العبوس و الحنق»(الحوفي،١٩٥٧:ج٢ص١٤٥)، فانّنا لا نوافق هؤلاء على القول أنّ أباحيّان لم يكن من أهل الفكاهة أو محبّي الهزل. و الظاهر أنّ ميل المؤرخين عندنا الى مقارنة التوحيدي بالجاحظ هو الذي ساقهم الى القول أنّ أباحيّان كان أميل الى الجدّ و الصّرامة،منه الى الفكاهة و الهزل في حين كان الجاحظ أميل الى الهزل و الفكاهة و لعلّ من هذا القبيل ما ورد على لسان أحمد أمين حينما يقول:«إنّ الجاحظ لما حسن حظّه،

ضحك، فاشتهر بالفكاهة الحلوة و النادرة اللّطيفة و ابوحيّان لما ساء حظّه بكي، و النّاس عادة يضحكون مع الضّاحك و يهربون من الباكي. فقد أكثر أبوحيّان من الشّكوى حتى ملّ عنه مسكويه في كتاب«الهوامل و الشوامل»و قرعه عليه»(التوحيدي،١٩٥٤،ص«ط»).

الواقع أنّ أباحيّان– على الرغم من بؤسه و كثرة بثّه لشكواه – كان ميّالا الى الهزل و الدّعابة، فضلاً عن أنّه كان أعرف الناس بقيمة الفكاهة في حياة بني البشر و هو نفسه يقول في موضع:

«ايّاك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فانّك لو أضربت عنها جملةً، لنقص فهمك و تبلّد طبعك...و اجعل الاسترسال بها ذريعةً الى إحماضك و الانبساط فيها سُلّماً الى جدّك، فانّك ميتٍ لم تذق نفسك فرح الهزل، كربها غم الجدّ، و قد طبعت في أصل تركيبها على الترجيح بين الأمور المتفاوتة، فلا تحمل في شيء من الأشياء عليها، فتكون في ذلك مسيئاً إليها...»(*نفس المصدر*:ص ٤٩–٥٠).

و معنى هذا أنّ التوحيدي قد فطن بذهنه الوقّاد الى أنّ المزاح ينفي عن النّفس ما طرء عليها من سأم و ضجر، و يزيل عن القلب ما ألمّ به من همّ و غمّ، فليس عجيباً أن نراه يؤكّد على قيمة الفكاهة في حياة الناس و ضرورة تذوّق النفس لفرح الهزل إذا كربها الغمّ و الجدّ؛ لذلك نجده يروي على مسامع الوزير ابي عبدالله العارض في الليلة الثامنة عشرة من ليالي«الامتاع و المؤانسة» الكثير من الملح و النوادر و الفكاهات، لكي يعقّب علي هذا كلّه بقوله:

«فقال– أدام الله دولته و بسط لديه نعمته– قدّم هذا الفنّ على غيره و ما ظننتُ أنّ هذا يطّرد في مجلس واحد و ربّما عيب هذا النّمط كلّ العيب و ذلك ظلم، لأنّ النفس تحتاج الى بِشرٍ، و قد بلغني أنّ ابن عبّاس كان يقول في مجلسه بعد الخوض في الكتاب و السنّة و الفقه و المسائل:أحْمِصوا[1] و ما أراه بذلك الّا لتعديل النّفس لئلاً يلحقها كلال الجدّ و لتقتبس نشاطاً في المستأنف و لتستعدّ لقبول ما يرد عليها فتسمع» (التوحيدي،١٩٥٦ج،٢ص٦٠)

و كثيراً ما كان الوزير ينهي المجلس بأن يسأل التوحيدي أن يأتيه بطرفة من الطّرائف كان يسمّيها غالباً«ملحة الوداع».(*نفس المصدر*:ج١ص٤٧).

---

١. حَمِصَ: أي سكنت ثورتُه.

فكان التوحيدي يجيب رجاء الوزير بأن يسرد نادرة لطيفة أو قصة طريفة أو أبياتاً رقيقة، بيد أنّه لم يمزج الهزل بالجدّ و الجدّ بالهزل، على طريقة الجاحظ الذي كان يريد من وراء هذا المزج رفع ملل القارئ و سآمة السامع:«إنقاذاً للقرّاء من طريقة العلماء الذين كانت لهم السيطرة الى ذلك الحين و الّذين كانت كتاباتهم ثقيلة لكثرة ما فيها من الجدّ و إظهار العلم»(متز،١٩٦٧:ج١ص٢٩٥).

كان إقبال التوحيدي على الفكاهة جزءاً لا يتجزّأ من صميم روحه التّشاؤمية التي كانت تريد إلغاء الواقع والتنكّر له و السخريّة منه. فلم يكن فنّ الضّحك عنده سوى مجرّد أداة دفاعية إصطنعتها نفسه لمواجهة ما في حياته من شدّة و قسوة و حرمان، و لعلّ هذا هو السبب في أنّ معظم الفكاهات التي وردت على لسانه لم تكن سوى نوادر أراد بها خلق جوّ إنطلاقيّ ملؤه اللّهو و العبث و اللّاواقعية، و كأنّه أراد بها أن تكون بمثابة«أداة تطهيريّة» تُبيد هواجسه الكئيبة و تطرد عنه أشباح الفشل و الفقر والبؤس.

و إذا صحّ ما ذهب اليه البعض من انّ«الضحك هو الإنسان نفسه» فربّما كان في مقدرتنا أن نستكشف شخصية التّوحيدي من خلال فكاهاته و نوادره.قال أحد الباحثين:«قل لي ممّ تضحك،أقل لك من أنت؟» فالضّحك علي هذا يكون معياراً لشخصية ابي حيّان أو أن تكون فكاهته أصدق تعبير عن نفسيّته! روى لنا بعض المؤرخين أنّ التوحيدي لم يتزوّج و لم ينجب أطفالاً (التوحيدي،البصائر و الذخائر:ص١٠)؛ فليس عجيباً أن نرى الكثير من فكاهاته و نوادره يدور حول النساء و الأطفال و كأنّما كان يجد في هذا النوع من الفكاهة تعويضاً نفسيّاً عن بقائه عازباً،كان التوحيدي أيضاً منطوياً على نفسه لائذاً بالوحدة و العزلة؛ فلا عجب أن نراه يسخر من الناس و يهزأ بهم و كأنّما قد وجد في هذه السخرية إشباعاً لميله الى التفوّق و نزوعه نحو الإستعلاء.

لم يكن التوحيدي موفّقاً في علاقاته مع الوزراء و الرؤساء، فلم يكن غريباً على رجل مثله عانى الكثير من وراء أنفته و كبريائه أن يتّجه نحو الفكاهة اللّاذعة و السخريّة البارعة و التصوير الكاريكاتوري السّاخر؛ و من هنا فقد كشفت فكاهة التوحيدي عن طبيعة مزاجه النفسي، حتى إنّنا لنكاد نجد فيها مرآة صافية لروح ذلك الرّجل الذي عاش وحيداً مكدوداً متكبّراً،سريع التأثر و الإنفعال.

و من المجلات التي تعرّضت لموضوع الفكاهة مجلة الهلال فقد أصدرت عدداً خاصاً(عدد آب ١٩٧٤)عن موضوع الفكاهة و خصّصت مجلة عالم الفكر (العدد:٣) بموضوعَ الفكاهة و كانت مقالاتها جيدة في دراسة هذا الموضوع، و أمّا بالنسبة الى هذا الموضوع أي موضوع الفكاهة في آثار ابي حيان التوحيدي فلم تنشر أية مقالة في المجلّات العلمية بعد، و من الصعب إقتباس كمّ هائل من المادة في بطون آثار ابي حيان حيث تختلط الموضوعات و يكثر الإستطراد كنظيره و مرشده الجاحظ، و لقد اعتمدتْ هذه المقالة في دراسة الفكاهة عند التوحيدي تطبيق منهج علم النفس و المنهج الادبي و أبرزت الدلالة النفسية التي كانت ترمز اليها الفكاهة عنده، إضافة الى دراستها دراسةً أدبية.

١- نوادر أبي حيان على لسان النساء

ليس في استطاعتنا أن نضع بين أيدي القرّاء طائفةً من النوادر التي رواها التوحيدي عن النساء: فإنّ معظم هذه النوادر التي رواها التوحيدي لا تخرج عن كونها مجموعة من الفكاهات المجونية التي يقبحها الذّوق السّليم و تعافها الآداب العامّة.

و ربّما كان السبب الرئيسي في إقبال التوحيدي على هذا النوع من القول البذئ أنّه – كما قال أحمد أمين – :«كان مكبوت الغريزة الجنسيّة و ذلك بحكم فقره و تقشّفه الجبري! فلم نسمع في تاريخ حياته أنّه تزوّج أو رزق أولاداً و لو كان لتحدّث عنهم كثيراً لأنّ سرّه دائماً مكشوف ثمّ كان فقره الفظيع يحول بينه و بين التسرّي، كما كان حال الأغنياء في زمنه»(التوحيدي،١٩٥٤،ص«هـــ»).

و ليس من شكّ في أنّ الرّجل حين يجهل المرأة زوجاً و أمّاً، فإنّه لن يرى فيها سوى مجرّد«موضوع جنسي» و أداة للمتعة! و لعلّ هذا هو السّبب في أنّ معظم النّكات الجنسيّة التي رواها لنا أبوحيّان لم تكن سوى فكاهات بذيئة تسخر من وظيفة المرأة التناسلية وصلاتها الجنسية بالرّجل و بصفة عامّة تنطوي على إستخفاف بقدسيّة جنس الإناث.

كانت الحياة الإجتماعية التي عاش أبوحيّان في كنفها مسؤولة عن إنتشار هذا النوع من الفحش في الكلام حيث أفرط الناس في زمنه في المجون و طربوا منه و تفتّحت نفوسهم له، الّا أنّه من المؤكّد أنّ التوحيدي قد أفرط في استخفافه بالمرأة و سخريّته منها.

يروي لنا التوحيدي نقلاً عن بكر بن حبيش- أنّه قال:«لّما خلقت المرأة قال لها ابليس: أنت رسولي و أنت نصف جندي و أنت موضع سرّي و أنت سهمي الذي أرمي بك فلا أخطئ»(التوحيدي،١٩٥٤،ص١٢٠).

و للتّوحيدي آراء أخرى عن المرأة ينقلها عن السّلف منها قول أحدهم:«ينبغي للرّجل أن يكون مع المرأة كما يكون أهل المجنون مع المجنون! يحتملون منه كلّ أذى و مكروه»(التوحيدي،الامتاع و الموانسة:ج١ص٢٩٠).

و منها قول آخر:«إنّ المرأة تَلقّنُ الشرّ من المرأة كما أنّ الأفعى يأخذ السمّ من الأصلّة»(*نفس المصدر*:ج٢ص٣١).

و منها ما قاله أحد الفلاسفة حين سئل: أي السّباع حسن؟ فأجاب:«المرأة» (التوحيدي، ١٩٥٤ج١ص٢٧).

الى آخر ذلك من الفكاهات و النوادر التي تستحي النّفس من بيانها.

٢- الفكاهات التي يرويها عن الأطفال

أمّا الفكاهات التي يرويها التوحيدي عن الأطفال و عن لسانهم فانّها أكثر طرافة و أبعث على الضّحك؛ لأنّها تكشف لنا عن منطق الطّفولة بمفارقاتها العجيبة و طرائفها العديدة. و لعلّ من أطرف هذه الفكاهات ما رواه لنا من أنّ رجلاً له غلام من أكسل خلق الله، طلب اليه يوماً أن يشتري له من السّوق عنباً و تيناً، و غاب الطّفل هناك مدةً طويلة ثمّ عاد الى والده يحمل عنباً فقط، فقال له أبوه: أبطأت حتى فرغ الصّبر، ثمّ جئت بإحدي الحاجتين،و أوجع الأب ابنه ضرباً و قال له: انّما ينبغي إذا استقضيتك حاجةً أن تقضي حاجتين، لا إذا أمرتك بحاجتين أن تجيء بحاجة! و لم يلبث الوالد أن مرض بعد يوم. فلزم الفراش و قال لابنه: إمض فجئني بالطّبيب و عجّل!فمضي الولد و جاءه بالطبيب و معه رجل آخر. فقال له الأب: هذا الطّبيب أعرفه، فمن هذا؟ قال الولد: أعوذ بالله منك، ألم تضربني بالأمس على مثل ذلك؟ قد قضيت لك حاجتين، و أنت استخدمتَني في حاجة، جئتُك بطبيبٍ ينظر إليك فإن كان به رجاؤك و الّا حفر هذا قبرك، فهذا طبيب و هذا حفّار،أيش(أي شيء) أنكرت؟(التوحيدي،البصائر و الذخائر: ص٧٢-٧٣).

و المضحك في هذة القصة هو منطق الطّفل: فإنّه قد إستخدم قياساً لا غبار عليه في الظاهر،و لكنّه قياس لا يخلو من مغالطة؛ لأنّه شاء أن يثأر لنفسه من أبيه القاسي المتشدّد، فأخفى وراء سذاجته وحسن نيّته ضرباً من المغالطة المغرضة! فالتّوحيدي هنا يسخر من الآباء في شخص هذا الوالد المسكين الذي أراد لنفسه الشّفاء فجاءه ابنه برسول الموت، مع حامل الدواء!

و من نوادر الأطفال أيضاً ما رواه التوحيدي في موضع آخر عن: غلام أعجمي ابتلى بوجع شديد، فجعل يتأوّه و يتلوّي و يصيح فقال له أبوه:يا بنيّ إصبر و أحمد الله تعالى. فقال الطّفل: و لماذا أحمده! قال:لأنّه إبتلاك بهذا! فاشتدّ وجع الغلام و رفع صوته بالتأوّه أشدّ ممّا كان، فقال له ابوه: و لِمَ اشتدّ جزعك؟ فقال:كنتُ أظنّ أنّ غير الله إبتلاني بهذا، فكنتُ أرجوه أن يعافيني من هذا البلاء و يصرفه عنّي، فأمّا إذا كان هو الذي ابتلاني به، فمن أرجو أن يعافيني؟ فالآن اشتدّ جزعي و عظمت مصيبتي!(التوحيدي،١٩٥٦،٣ص١٨٩).

و الطّريف في هذه القصة ردّ فعل الطّفل الذي لا يخلو من براعة و قوّة ملاحظة وحسن تحليل؛ لأنّه يقيس قياساً منطقياً لا يدري موضع النّقص فيه، فلم يجد التوحيدي بُدّاً من أن يعلّق علي هذه النادرة بقوله:«و لو علم الغلام أنّ الذي ابتلاه هو الذي استصلحه بالبلاء، ليكون إذا وهب له العافية شاكراً له عليها بحسّ صحيح و علم تامّ، لكان لايري ما قاله و توهّمه لازماً»(*نفس المصدر*:ج٣ص١٩٠).

و من النّكات الساذجة التي تكشف عن براءة الأطفال وعجزهم عن فهم الزّمان، ما رواه التوحيدي عن أحد الآباء من أنّه طلب الى إبنه يوماً أن يكتب كلمة الى أحد أصدقائه — و كان الصديق قد وعده بالحضور بالأمس فأخلف موعده — طالباً إليه إنجاز ما وعد، فأخذ الغلام القلم و القرطاس و كتب:

يَا مَنْ فَدَتْ أنفُسُنا نَفْسَهُ

مَوْعدُنا بالامسِ لا تُنْسِه!

(التوحيدي،البصائر و الذخائر:ص٧٣).

الطّريف في هذه النادرة أنّها تكشف عن تداخل أقسام الزمان في ذهن الطّفل و كأنّ في مقدرة الانسان أن يستحضر(الأمس) الذي إنصرم، لكي ينجز فيه وعداً فاته أن يحقّقه في أوانه! التّوحيدي يعرف جيّداً أنّ الآباء يردّون الى أبنائهم الجميل بمثله، كما أنّها أيضاً يسخرون منهم و يتندّرون عليهم! ومن هنا فإنّنا نراه يروي لنا الكثير من التعليقات الطريفة و النوادر اللطيفة

التي ينفّس فيها الآباء عن أنفسهم و يبثّون شكواهم الرّوحي و يصبرون من خلاله عن بعض ما يصيبهم من آلام في الحياة بسبب أعباء الأسرة! فمن ذلك مثلاً أنّ:«أبا عمارة – قاضي الكوفة – سئل يوماً أيّ بنيك أثقل؟ فكان جوابه: ما فيهم بعد الكبير أثقل من الصّغير الّا الأوسط»(التوحيدي، ١٩٥٦، ج٢ص٥٦).

و هذه الفكاهة هي من قبيل ما اصطلح على تسميته باسم «الفكاهة الردّ الحاضر» و هو الردّ الذي يشهد لصاحبه بسرعة البديهة و حدّة الذكاء و براعة التّعبير.

و نحن نعرف كيف أنّ الأصل في أفعل التّفضيل هو تقديم واحد على كثيرين أو تمييز واحد من بين كثيرين، و لكنّ هذا الوالد السّاخط على بنيه عرف كيف يتلاعب باللّغة،كي يضع جميع أبنائه على مستوى واحد من حيث درجة ضيقه بهم و إستيائه منهم!

و يروي لنا التّوحيدي في موضع آخر أنّ:«المحسن الضبّي كان شرهاً على الطّعام و كان دميماً، فقال زياد (بن أبيه)ذات يوم: كم عيالك؟ قال: تسع بنات! قال: فأين هنّ منك؟ فقال: أنا أحسن منهنّ و هنّ آكل منّي! فضحك زياد و أمر له بجائزة!»(*نفس المصدر*:ج٣ص٨١).

هذه الإجابة الطّريفة انّما تثير الضحك و التبسّم،لأنّها تركّز في جملة واحدة علي ضيق الأب ببناته التّسع و تبرّمه برزقهنّ الضّيق و سخطه علي حظّهنّ البائس من دمامة الوجه و تحسّره علي الطعام الطيّب في وسط كلّ هذا الزحام!

و لعلّ من هذا القبيل أيضاً ما رواه التوحيدي من أنّ:«شابّاً زاحم شيخاً في الطّريق ثمّ سخر منه على سبيل المجون– قائلاً: كم ثمن هذا القوس؟ يعيّره بالانحناء. فقال الشيخ: يا بنيّ إن طال عمرك فإنّك مشتريه بلا ثمن!»(التوحيدي،البصائر و الذخائر:ج١ص ٥٦).

و الصّراع في هذه القصة ليس بين الآباء و الأبناء، بل بين الشّيوخ و الشّباب و لكنّه على كلّ حال صراع ينتصر فيه الشّيوخ لأنّهم أسرع بديهة و أحدّ ذكاء و أبرع إجابة!

٣– النكات العقلية و النوادر اللفظية(التّلاعب بالكلمات):

الظاهر أنّ التوحيدي كان مولعاً بالنكات العقلية و النوادر اللفظيّة، خصوصاً ما كان منها شاهداً على ذكاء صاحبه و سرعة بديهته و براعته في الردّ. و كثيراً ما يكون صاحب النكتة مضطلعاً باللّغة، فتضاف البراعة اللّغوية الى سرعة البديهة و تخرج من ذلك النكتة البارعة اللاذعة التي لا تدع مجالاً للردّ. و لعلّ من ذلك ما رواه ابوحيّان من «أنّ شيخاً أعرابياً كان

يطوف و يسأل الناس.فقال لأحدهم: ما اسمك؟ قال: مانع و قال للآخر:ما اسمك؟ قال: محرز و قال لآخر: ما اسمك؟ قال: حافظ! فقال الأعرابي: قبّحكم الله ما أظنّ الاقفال الّا من أسمائكم!»(التوحيدي، ١٩٥٦، ج٢ص٥٧). و لا شكّ أنّها مفاجأة لرجل يلتمس البذل و العطاء، أن لا يلتقي في طريقه الّا بأهل المنع والشحّ و قد انتقم الرّجل لنفسه حينما قال عنهم إنّهم كالأقفال، فقد جاء وصفه مطابقاً لمقتضى الحال!

و يدخل في هذا الباب أيضاً ما أورده التوحيدي عن رجل أ عمى كان يطوف و يسأل بأصفهان، فأعطاه مرّة انسان رغيفاً كاملاً. فدعا له و قال: «أحسن الله اليك و بارك عليك و جزاك خيراً و ردّ غربتَك! فقال له الرّجل: و لمَ ذكرتَ الغربة في دعائك و ما علمك بالغُربة؟ فقال: الآن لي هاهنا عشرون سنة ما ناولني أحد رغيفاً صحيحاً»(*نفس المصدر: ج٣ص٢٨*).

و اللّطيف في هذه القصة هو حسن الإستدلال و التّعليل: فإنّ السائل البائس المسكين الذي طالما عانى شحّ مواطينه، قد وجد هذه الفرصة سانحةً للتّعبير عن ضيقه بأهل بلدته و قاطنيها أمام أوّل غريب لم يخب ظنّه فيه!

كان أبوحيان نحويّاً و عالماً لغوياً، فليس عجيباً أن نراه يميل الى النوادر القائمة على التورية و التّلاعب اللفظي، و لعلّ من هذا القبيل ما رواه لنا عن نفسه من أنّه لّما وصل الى الصاحب ابن عبّاد قال له الوزير: أبو من؟ فقال:أبوحيّان، فقال الصّاحب:بلغني أنّك تتأدّب.

فأجاب بقوله: «تأدّب أهل الزّمان.فسأله الصّاحب:أبوحيّان ينصرف أو لا ينصرف؟ فأجاب بقوله: إن قبِلَه مولانا لا ينصرف! فلمّا سمع الصّاحب هذه الأجابة تنمر و كأنّها لم تعجبه و أقبل علي واحد الى جانبه.فقال له بالفارسية كلاماً سفهاً في حقّ التوحيدي» (التوحيدي، ١٩٩٢: ص٢٠٣).

و السّبب في سخط الوزير على ابي حيّان«أنّه كان جادّاً في حين أنّ أباحيّان كان هازلاً متفكّها فهو يسأله عن كلمة «حيّان» أ تنصرف أم لا تنصرف، متوقعاً منه جواباً صرفيّاً، فإذا هو يسمع جواباً آخر أقرب الى المزاح و الدعابة منه الى الجدّ و الصرامة!» (الحوفي، ١٩٥٧ ج١ ص٦٠ – ٦١).

و من النّكات اللفظيّة ما رواه أبوحيّان في موضع آخر عن ابن سيّابه[1] من «أنّه حضر جنازة بمصر فقال له بعض القبط: يا كُهل، مَن المتوفّي (بكسر الفاء) فقال: الله عزّوجلّ!

فما كان منهم سوي أن إنهالوا عليه ضرباً حتي كاد يموت!» (التوحيدي،١٩٥٤، ص١٥١). الطّريف في هذه القصة أنّ الفرق بين الفاء المكسورة و الفاء المفتوحة في هذه الكلمة هو الذي تسبّب في معاناة ابن سيّابة لتلك الحملة التأديبيّة التي كادت تودي بحياته! و لو علم المعتدون، لأدركوا أنّ بين الفاء المكسورة و الفاء المفتوحة هنا من الخلاف قدر ما بين الخالق الذي يصطفي الى جواره من يشاء من عباده و المخلوق الذي يذوق الموت حين يوافيه الأجل المحتوم. و قد يدخل في هذا الباب أيضاً ما رواه التّوحيدي في موضع آخر أنّ أمّياً يسمّى مِشمِشة طلب يوماً الى صديق له أن يكتب له خطاباً يقول فيه: إنّ مشمشة يقرأ عليك السلام. فقال له الرجل: قد فعلت— و ما كان فعل — فقال مشمشة: أربي، فقال الرجل: هذا إسمك فقال:هيهات، اسمي في الكتابة شبه داخل الأذن، فضحك النّاس و تعجّبوا من جودة تشبيهه»(التوحيدي، ١٩٥٦:ج٢ص٥٤، راغب اصفهاني، ١٩٨٦، ج١ص١٣٣، حمدون، ١٤٧١، ج١٠ص٢٩٩)

۴– نوادر البخلاء و الطفيليّن:

لم يكن من المستغرب على رجل مثل التّوحيدي الذي عانى مرارة الفقر و البؤس و ذاق ويلات الجوع، أن يقبل على نوادر البخلاء و الطفيليّين و أن يرحّب بالأستماع الى أحاديث الطّعام و المعدة.

و هو يطيل الكتابة في هذا المضمار، بعد كلّ ما كتبه فيه الجاحظ فيقول:«إنّ الجاحظ قد أتي على جمهرة هذا الباب الّا ما شذّ عنه ممّا لم يقع اليه: فإنّ العالم — و إن كان بارعاً — ليس يجوز أن يُظنّ به أنّه قد أحاط بكلّ باب أو بالباب الواحد الى آخره، على أنّه حدث منذ عهد الجاحظ الى وقتنا هذا أمور و أمور و هنات و هنات و غرائب و عجائب الخ...»(*نفس المصدر*:ج٣ص٢-٣).

---

١. هو إبراهيم بن سيّابة مولى بنى هاشم. كان يقال: إن جدّه حجام أعتقه بعض الهاشميين.قدّمه إبراهيم الموصليّ و ابنه إسحاق لأنه مدحهما فرفعا من قدره و غنيّا بشعره و نوّها بذكره.و كان خليعاً ماجناً حسن النادرة.(النويري،نهاية الارب،ج۴ ص۵۶).

و لعلّ من أطرف نوادر البخلاء التي رواها لنا التّوحيدي ما قاله عن عثمان بن رواح من أنّه سافر يوماً بصحبة رفيق له، فلمّا كانا معاً قال له الرفيق: إمض الى السّوق فاشترِ لنا لحماً. قال: و الله ما أقدر!قال: فمضي الرّفيق و اشترى اللّحم ثمّ قال: قم الآن فاثرده. قال: و الله إنّي لأعجز من ذلك.فثرد الرفيق: ثمّ قال: قم الآن فكُل. فقال: لقد استحييت من كثرة خلافي عليك و لو لا ذلك ما فعلت»(*نفس المصدر*:٣-٤٠).

و لانرى في حاجة الى التّعليق على هذه النادرة: فإنّ عنصر المفارقة فيها واضح و لم يكن في استطاعة عثمان بن رواح أن يرفض الطّعام بعد أن كان قد تأبى على رفيقه ثلاث مرّات!

و يروي لنا التوحيدي قصّة ذلك الغرام العجيب الذي نشأ بين رجلٍ و جارية من جواري قوم موسرين «فكان الرّجل كلّما قدم إليه ضيوف، بعث يطلب إليها بما يكفيه هو وأصحابه، فكانت توجّه اليه بكلّ ما سأل، ثمّ كتب لها الرّجل يوماً آخر: جُعلت فداك، قد اشتهيتُ أنا و أصحابي رءُوساً سماناً، فأحبّ أن توجّهي إلينا بما يَكفينا. فكتبت الجارية: إنّي رأيت الحبّ في القَلب و حبّك هذا ما تجاوز المعدة و كتبت أسفل الرُّقعة:

«عُذَيري منْ حَبيب جا ءَنا في زمَنِ الشِّدَّهْ
وَ كانَ الحُبُّ في القَلبِ فَصارَ الحُبُّ في المِعْدَهْ»

(التوحيدي،١٩٥٦:ج٣ص٨-٩)

و المضحك في هذه القصة إنّما هو هذا الانتقال الفجائي من أمور النّفس الى أمور البدن أو من سموّ الرّوح الى مادّية الجسد و كأنّ المعدة قد احتلّت مكان القلب!

و التّوحيدي يروي لنا – على غرار الجاحظ – الكثير من نوادر الطفيليّين و أهل الشّراهة، فهو ينقل عن أحدهم قوله: «اذا حُدّثتَ على المائدة فلا تزد في الجواب على نعم، فإنّك تكون بها مؤانساً لصاحبك و مسيغاً للقمتك و مقبلاً علي شأنك»(*نفس المصدر*:ج٣ص٣٦).

و يسرد علينا في موضع آخر قصّة ذلك الرّجل الشّره الذي دخل علي قوم يستمعون الى غناء. فقال لهم: والله ما أجد شيئاً من المتعة فيما أنتم فيه! فقال له أحدهم: «قصدتَ الى أرقّ شيء خلقه الله، و ألينه علي الأذن و القلب و أظهره للسّرور و الفرح و أنفاه للهمّ و الحزن فذممتَه!...و هنا أجاب الرجل:أمّا أنا فالطّعام الرقيق أعجب الى من الغناء! و جعل يذمّ الغناء. فقدّموا له من الطّعام ما صرفه عن الإنشغال بذمّ الغناء!»(*التوحيدي، ١٩٥٦*،ج٣ص٨٠).

ثمّ **إنّ** التّوحيدي لا ينسي- حتّي عند الحديث عن الطّعام و الشراهة – أنّه فيلسوف يلتمس التّعريف و الحدود للأشياء، فنراه يسرد علينا الكثير من التعريفات الطريفة للشّبع، بما فيها تعريفات الصّوفي و المتكلّم و الطّبيب و البخيل و الطّفيلي و الجنديّ...و لعلّ من أطرف هذه التّعريفات ما ورد علي لسان بخيل من أنّ: «الشبع حرامٌ كلّه و انّما أحلّ الله من الأكل ما نفي الخَوي و سكن الصُّداع، و أمسك الرَّمق! و حال بين الإنسان و بين المرح و هل هلك النّاس في الدّين و الدنيا الّا بالشّبع و البطنة و الإحتشاء»(*نفس المصدر*:ج٣ص٢١).

أو ما ورد على لسان أعرابيّ من أنّ الشبع: «ما وجدت العينُ و امتدّت اليه اليد و دار عليه الضّرس و أساغه الحلق و انتفخ به البطنُ و استدارت عليه الحوايا و استغاثت منه المعدةُ و تقوّست منه الأضلاعُ و التوت عليه المصارينُ و خيف منه الموتُ!»(*نفس المصدر*:ج٣ص٢٠).

و حسبنا أن نقول إنّ اباحيّان قد استوعب هذا الباب علي أتمّ وجه، فاختصّ ثلاث ليالٍ بأكملها من ليالي الامتاع و المؤانسة للحديث عن نوادر الطّعام و البخل و الشّراهة و الشبع و الجوع و شتّى فنون المعدة!و قد يجدّ أبوحيّان فيقول لنا: «إنّ الجائع ضيّق الصدر،فقير النفس،و الشبعان واسع الصدر، غنيّ النفس»(*نفس المصدر*:ج٣ص٨١).

و هو في خلال حديثه عن الشراهة و البطنة لا ينسى أن يشرك الحيوان في حبّ الطّعام، فنراه يروي على لسان أعرابيّ«أنّه سمع دابّة تعتلف في جوف اللّيل فقال:«إنّي لأراك تسهرين في مالي و النّاس نيام، و الله لا تصبحين عندي، و باعها!»(*نفس المصدر*:ج٣ص٣٣).

و مهما يكن من شيء فقد استطاع التّوحيدي أن ينافس الجاحظ في نوادره عن البخلاء، و إن كان للفكاهة عند أبي حيّان طابع عقليّ قد لا نجد له نظيراً عند الجاحظ، فضلاً عن أنّ التوحيدي كان أبرع من الجاحظ في تسجيل المناظرات و المحاورات و شتّى فنون الحديث التي جرت علي لسان الخاصّة و العامّة حول أدب المعدة!

٥- النوادر الكاريكاتورية

إنّ كثيراً من المؤرخين قد دأبوا على القول إنّ الجاحظ قد إشتهر– دون أبي حيّان – بفنّ التهكّم و السخريّة، لكنّه ربّما في وسعنا أن نقول إنّ أ باحيّان قد برع أيضاً في تصوير عيوب الناس، و إبراز نقائصهم و المبالغة في تجسيم مثالبهم و كأنّما كان الرسّام الهزليّ (الكاريكاتوري) الذي يسخر من الناس بريشته الفنّية البارعة! و الظاهر أنّه كان مولعاً

باستقصاء عيوب الناس و جمع مخازيهم، حيث أنّه هو نفسه يروي لنا في أحد المواضع «أنّه كان بحضرة ابي سعيد السّيرافي[١]، فوجد جملة بخطّه علي ظهر كتاب اللمع في شواذّ التفسير— و كان بين يديه — فأخذ الكتاب و نظر اليه و قرأ العبارة التالية: ذمّ أعرابي رجلاً. قال: ليس له أوّل يحمل عليه و لا آخر يرجع اليه و لا عقل يزكو به عاقل لديه و أنشد:

«حَسِبتُكَ إنْساناً على غَيرِ خُبْرةٍ فَكشفتَ عن كَلْبٍ أكبَّ على عَظمِ
لَحَــا اللهُ رأياً قــادَ نحوَكَ هِمَّتي فــأعْقَبَني طــولُ المَقــامِ على الذَّمِّ»

فقال أبوسعيد:يا أباحيّان، ما الذي كنت تكتب؟ قال: الحكاية التي على ظهر هذا الكتاب فأخذها و تأمّلها و قال: تأبى الّا الاشتغال بالقدح و الذّمّ و ثلب الناس؟فقال ابوحيّان:أدام الله الإمتاع بك، شغل كلّ انسان بما هو مبتلى به، مدفوع اليه» (التوحيدي،١٩٥٣، ص١٠٣-١٠٤).

و قد سبق لنا أن رأينا كيف ألّف أبوحيّان كتاباً بأكمله في ذمّ الصاحب بن عبّاد و ابن العميد فضلاً عن أنّه صوّر لنا معظم الشخصيّات الأدبيّة و الفكريّة التي عاصرها،فكان بذلك أبرز أديب نقدي إنطباعي في القرن الرابع الهجري.و إذا كان للبعض أن يذهب الى أنّ «التوحيدي كان مسوقاً بحكم طبيعته و غريزته و حقده علي النّاس الى التنقيب عن النقائص و اقتناص العيوب، فهو يلتمس من الملامح و الطّباع كل ما يرمز الى التدنّي الخُلقي»(الكيلاني،دون تاريخ، ص ٦٨)، فانّنا نميل الى الظّنّ أنّ إهتمام التوحيدي باستقصاء عيوب الناس لم يكن في الأصل مظهراً لبحثه عن علامات التدنّي الخُلقي و انّما كان عرضاً مصاحباً لميله و جنوحه لإبراز ما غمض و خفي من سرائر النّفس البشرية؛ فقد قدّم لنا التوحيدي صوراً فنّية جميلة، حتّى حينما وصف لنا عيوب الناس و نقائصهم، فأثبت لنا بذلك أنّ «القبح نفسه سرعان ما يستحيل الى جمال رائع اذا امتدّت اليه يد الفنان بعصاها السحرية.»(ابراهيم، ١٩٧٤: ص١٨٤).

و لعلّ من هذا القبيل مثلاً ما أورده التوحيدي في وصف حركات الصّاحب بن عباد حينما كتب يقول: «و هو في كلّ ذلك يتشاكى و يتحايَل و يَلوي شِدقَه و يبتلعُ ريقَه و يرُدُّ

١. الحسن بن عبد اللّه بن المرزبان أبو سعيد القاضي السّيرافيّ النحويّ. سكن بغداد و ولّي القضاء ببغداد،و كان أبوه مجوسياً أسـلم، و اسمه بهزاذ و كان يدرس القرآن و القراءات و علوم القرآن و النحو و اللغة و الفقه و الفرائض و الكلام و الـشعر و العـروض و القوافي و الحساب، و علوما سوى هذه و كان من أعلم الناس بنحو البصريين، و ينتحّل فى الفقه مذهب أهل العراق.قـرأ علـى أبي بكر بن مجاهد القرآن، و على أبي بكر بن دريد اللغة، و درسوا جميعاً عليه النحو.و قرأ على أبي بكر بن السراج و علـى أبي بكـر المبرمان النحو، و قرأ عليه أحدهما القراءات،و درس الآخر عليه الحساب.(القفطي،إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج١ص٣٤٨).

كالآخذ و يأخُذُ كالمتمنِّع و يغضب في عرض الرِّضا و يرضي في لَبوس الغَضب و يتهالَك و يتمالَك و يتقابَل و يتمايل و يُحاكي المُومَسات و يخرُجُ في أصحاب السِّماجات...» (التوحيدي،١٩٥٦، ج١ص٥٩).

ثمّ نراه يعمد الى تأكيد هذه الصّورة بأسلوب فنّي أعمق تعبيراً و أبرع سخرية، فنراه ينسب الى ابن العميد أنّه كان اذا رأى الصّاحب قال:«و أحسب أنّ عينيْه من زِئبق و عنقه عمل بلَولَب و صَدقَ فإنّه كان ظريفَ التَثَنِّي و التَلوِّي، شديدَ التفكُّك و التفتُّلِ،كثيرَ التعوُّج و التَموُّج في شكل المرأة المُومَسة و الفاجِرة المَاجنة...»(التوحيدي، ١٩٩٢، ص٨٠).

و لا شكّ في أنّ هذه الصّورة الآلية التي يقدّمها لنا التّوحيدي عن الصّاحب انّما هو كدُمية خشبية تتراقص بشكل الى و تتحرّك بصورة منظّمة، لا بإزاء شخصية حيّة تصدر في أفعالها عن حريّة و تدبّر، و تأتي من الحركات ما يتناسب مع أغراضها و غاياتها!

و يروي لنا التّوحيدي في كتابه(مثالب الوزيرين) كيف أنّ الصّاحب طلع عليه يوماً و هو يكتب له شيئاً كان قد كلّفه بنسخه، فلمّا أبصره قام واقفاً، فصاح ابن عبّاد – بحلقٍ مَشقوق –:«أقعد فالورّاقون أخسّ من أن يقوموا لنا و همّ ابوحيّان بأن يردّ على هذه الإهانة، لولا أنّ زميلاً له أشار اليه بأن يسكت، فإنّ الرجل رقيع! و غلب الضّحك على ابي حيّان و استحال الغيظ تعجّباً من سخفه و خفّته:«لأنّه قال هذا و قد لوي شدقُه و شمخ أنفُه و أمال عنقُه و اعترض في انتصابه و انتصب في اعتراضه و خرج في مَسك[1] مجنونٍ قد أفلت من دَير جُنونٍ» (*نفس المصدر*:ص٩٩).

و كأنّ التّوحيدي قد خشي الّا يكون هذا الوصف كافياً لتصوير الوزير الخارج عن طوره، فنراه يعقّب على القصّة السابقة بقوله: «والوصف لأياتي علي كُنه هذه الحال، لأنّ حقائقها لا تدرك الا باللّحظ و لا يؤتى عليها باللّفظ»(نفس المصدر) و كان الصاحب بن عبّاد يميل كثيراً الى استقبال السّجع، فأراد التّوحيدي أن يسخر منه، فنسب اليه من السّجع المتكلّف المبالغ فيه ما يثير الضحك و يبعث على الإبتسام.

١. المَسك: الجلد.

و لعلّ من ذلك مثلاً ما رواه أبوحيّان من أنّ الصّاحب قال يوماً في دار الإمارة لفيروزان المجوسي:«إنّما أنت مُخْش مُجش مُحش، لا تُجشِ و لا تُبشِ و لا تُحشِ، فقال له فيروزان: أيّها الصّاحب برئت من النار إن كنتُ أدري ما تقول»(*التوحيدي، ١٩٩٢*،ص٧٤).

و من ذلك أيضاً قوله لشيخٍ من خراسان:«و الله لو لا شيبُك لقطعتك تقطيعاً و بضعتُك تبعيضاً و وزّعتك توزيعاً و مزّعتُك تمزيعاً و جزّعتك تجزيعاً ...»(*نفس المصدر*:ص٩٨).

و كتاب مثالب الوزيرين مليء بالسّجع المتكلّف الذي يجريه أبوحيّان على لسان الصّاحب و كأنّما هو يريد أن ينسب اليه من الرّكاكة اللّفظية ما يجعلنا نضحك منه و نستهزء به!

و هكذا أظهر التّوحيدي براعة جسيمة في فنّ التصوير النّقدي، فكان في الطليعة بين أصحاب الأقلام السّاخرة من رجالات(الأدب الهزليّ).

٦- تحليل الضّحك

لم يقف إهتمام التوحيدي بالفكاهة عند حدّ رواية النكتة و سرد النادرة و إستخدام العبارات الساخرة و انّما نراه يعني بتعليل الضّحك و تفسير أسبابه و تحليل ملابساته. فهو في المقابسات مثلاً يسأل أستاذه أبا سليمان السجستاني[١] عن الضّحك: ما هو؟ ثمّ يسجّل إجابة أستاذه بشئ غير قليل من الدّقة و محصّل هذه الأجابة أنّ «الضّحك من فعل قوّتين متضادّتين همـــا القـــوّة الناطقة و القوّة الحيوانية، نتيجة لاستطراق و ردّ على النّفس. و حين تتجاذب النفَس مرّة الى داخل و مرّة الى الخارج أو عندما تحكم مرّة بأنّ الشيء كذا و مرّة بأنّه ليس كذا، فهنالـــك ينتج الضّحك عن هاتين الحركتين المتضادتين» (التوحيدي، ١٩٥٢، ص٢٧٤).

---

١. سهل بن محمد أبو حاتم السّجستانيّ الجشميّ النحويّ اللغويّ المقرئ، نزيل البصرة و عالمها. قال المبرّد: سمعته يقول: قرأت كتاب سيبويه على الأخفش«٣» مرتين. و كان كثير الرّواية عن أبي زيد و أبي عبيدة و الأصمعيّ، عالماً باللغة و الـــشعر، حـــسن العلـــم بالعروض و إخراج المعمّى. و له شعر جيّد، و يصيب المعنى.(القفطي،إنباه الرواة على أنباه النحاة: ج٢ص٦٠).

٢.أحمد بن محمد بن يعقوب الملقّب مسكويه.كان مسكويه مجوسياً و أسلم، و كان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة، و له في ذلـــك: كتاب الفوز الأكبر و كتاب الفوز الأصغر و صنّف كتاب تجارب الأمم في التاريخ، ابتداؤه من بعد الطوفان و انتهاؤه إلى سنة تـــسع و ستين و ثلاثمائة.(الحموي،معجم الادباء: ج١ص٢٢٠).

و يعود التوحيدي مرّة أخرى الى ظاهرة الضّحك، فنراه يسأل صديقه مسكويه[١] في موضع آخر قائلاً:«قد نرى من يضحك من عَجب يراه و يسمعه أو يخطر على قلبه ثمّ ينظر اليه ناظر من بُعد، فيضحك لضحكه من غير أن يكون شركة فيما يضحك من أجله و ربما أربي ضحكُ الناظر على ضحك الأول. فما الذى سرى من الضّاحك المتعجّب الى الضّاحك الثّاني» (التوحيدي،١٩٥١، ص٢٤٧).

و التّوحيدي هنا يثير مشكلة(العدوى الوجدانية) التي تنطوي عليها ظاهرة الضّحك، فيكشف بذلك من فهمه للصّبغة الإجتماعية التي تتّسم بها هذه الظاهرة.

و يتساءل أبوحيان في (الهوامل و الشوامل) عن طبيعة الموقف النفسي الذي لابدّ من أن يتّخذه المضحِك، فنراه يقول: «لم صار الناس يضحكون من المضحك اذا لم يضحك أكثر من ضحكهم منه إذا ضحك؟ و هذا عارض موجود في كلّ من ألهاك و لم يضحك» (*نفس المصدر*، ص٢٨٩).

و كلّ هذه الأسئلة تدلّنا علي أنّ أباحيّان قد اهتمّ بفلسفة الضّحك كما اهتمّ من قبل بسيكولوجيّة الفكاهة.

و أغلب الظنّ عندنا أنّ التوحيدي قد اتّخذ من الضحك بديلاً يستعين به علي اجتناب العويل و البكاء فبقى الحسّ الفكاهي عنده مشوباً بضرب من المرارة المنطوية عليها نفسه.

و دلّتنا التجربة على أنّ ازدياد إقبال الافراد على الفكاهة كثيراً ما يقترن بازدياد قسوة المعيشة،ممّا يدلنا على أنّ الضحك فنّ ابتدعته النفس البشريّة لمقابلة ما في حياتها من شدّة و قسوة و حرمان!

النتيجة

النتيجة المحصلة من هذا المقال هي أنّ الفكاهة و النادرة كلمّا كانت انعكاساً للفرح الروحي و السرور، يمكن أن تكون صدى لما حفّت به حياة الانسان من آلام و محن و مصائب و لـــيس من شكّ في أنّ النفس المعذّبة كثيراً ما تلتمس في الهزل و الفكاهة ترويحاً و تنفيساً عن نفسها، فلا تكون الفكاهة بالنسبة اليها سوى منفذ للتّنفيس عن آلامها و محنها.

إنّ أبا حيّان التوحيدي بحكم تقشّفه و بؤسه و الشدائد التي كان ينوء بثقلها في حياته الكئيبة، مال الى هذا الفّن. و نستطيع أن نقسم فكاهاته و نوادره الى خمسه اقسام:

١- **الفكاهة حول النساء**: النوادر التي رواها التوحيدي عن لسان النّساء لا تخرج عن كونها مجموعة من الفكاهات المجونية التي يقبحها الذّوق السّليم لأنّه كان مكبوت الغريزة الجنسيّة و ذلك بحكم فقره و تقشّفه الجبري و لم يكن يري فيها سوى مجرّد«موضوع جنسي» و أداة للمتعة!

٢- **الفكاهة عن لسان الاطفال**: الفكاهات التي يرويها التوحيدي عن الأطفال و عن لسانهم فإنّها أكثر طرافة و أبعث علي الضّحك، لأنّها تكشف لنا عن منطق الطّفولة بمفارقاته العجيبة و تشتمل علي قياسات لا تخلو من المغالطة و انعدام الفهم الصحيح من الطبيعة و الواقعية و برائتهم النفسية.

٣- **النكات العقلية و النوادر اللّفظية**:و هي النّوادر التي تدلّ على ذكاء صاحبها و سرعة بديهته و براعته في الردّ. و كثيراً ما يكون صاحب النكتة مضطلعاً باللّغة، فتضاف البراعة اللّغوية الى سرعة البديهة و تخرج من ذلك النكتة البارعة اللاذعة التي لا تدع مجالاً للردّ.

٤- **نوادر البخلاء و الطفيليّين**: لم يكن من المستغرب على رجل مثل التّوحيدي الذي عانى مرارة الفقر و البؤس و ذاق ويلات الجوع، أن يقبل على نوادر البخلاء و الطفيليّين و أن يرحّب بالأستماع الى أحاديث الطّعام و المعدة.فقد استطاع التّوحيدي أن ينافس الجاحظ في نوادره عن البخلاء و إن كان للفكاهة عند أبي حيّان طابع عقليّ قد لا نجد له نظيراً عند الجاحظ، فضلاً عن أنّ التوحيدي كان أبرع من الجاحظ في تسجيل المناظرات و المحاورات و شتّى ي فنون الحديث التي جرت على لسان الخاصّة و العامّة حول أدب المعدة!

٥- الصور الكاريكاتورية و التهكّم بأشخاص كالصاحب بن عبّاد و ابن العميد و غيرهما لأنّه برع في تصوير عيوب الناس، و إبراز نقائصهم و المبالغة في تجسيم مثالبهم.

و ملخص الكلام أنّ التوحيدي قد اتّخذ من الضحك بديلاً يستعين به على اجتناب العويل و البكاء فبقى ي الحسّ الفكاهي عنده مشوباً بضرب من المرارة المنطوية عليها نفسه.

المصادر و المراجع

- ابراهيم، زكريا، **سيكولوجية الفكاهة و الضحك**،القاهرة، مكتبة مصر، لا.ت.
- ـــــ، ـــــ، ***ابوحيان التوحيدي فيلسوف الادباء و اديب الفلاسفة***، نشر الهيئة المصرية العامّة للكتاب،ط الثانية،١٩٧٤م.
- ابن منظور الاندلسي، ***لسان العرب***،قم، نشر أدب الحوزه، ١٤٠٥ه.
- پاينده، ابوالقاسم، ***نهج الفصاحة***، تهران، دنياي دانش، چاپ چهارم،١٣٨٢ ه.ش.
- التوحيدي، علي بن محمد، ***الامتاع و المؤانسة***، تحقيق احمد امين و احمد الزين، بيروت، مكتبة الحياة،١٩٥٦م.
- ـــــ، ـــــ، ***البصائر و الذخائر***، حقّقه و علّق عليه احمد امين، احمد صقر، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر،١٩٥٤.
- ـــــ، ـــــ، ***المقابسات***، تحقيق حسن السندوبي، القاهرة، مطبعة الرحمانية،١٩٥٣م.
- ـــــ، ـــــ، ***الهوامل و الشوامل***، تحقيق أحمد امين و أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف،١٩٥١م.
- ـــــ، ـــــ، ***الإشارات الإلهية***، حقّقه وقدّم له عبدالرحمن بدوي، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ط الاولي،١٩٨١م.
- التوحيدى،ابو حيان على بن محمد، ***أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين)***، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، بيروت، دار صادر،١٩٩٢م.
- ـــــ، ـــــ، ***أخلاق الوزيرين***، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، بيروت،دار صادر،١٩٩٢م.
- حمدون، محمد بن حسن، ***التذكرة الحمدونية***، بيروت، دارصادر، ط الاولى،١٤١٧ ه.
- الحموي، ياقوت، ***معجم الادباء***، بيروت،دار الغرب الإسلامي، ط الاولى، ١٤١٤ه.
- الحوفي، أحمد محمد، ***ابوحيان التوحيدي***، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.
- الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضّل، **محاضرة الأدباء و محاورات الشعراء البلغاء**، تهذيب ابراهيم زيدان، بيروت،دارالجيل، ط الثانية، ١٩٨٦.
- الكيلاني،ابراهيم، ***ابوحيان التوحيدي***، مصر، دارالمعارف، ط الثانية،د.ت.
- القفطي،جمال الدين، ***إنباه الرواة علي أنباه النحاة***، بيروت، مكتبة عنصرية، ط الاولى، ١٤٢٤ه.
- متز، آدم، (١٩٦٧م)، ***الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري***، تعريب محمد عبدالهادي ابوريدة، بيروت، نشر دارالكتب العربي، ط الرابعة.
-النويري، شهاب الدين، **نهاية الارب في فنون الادب**، القاهرة، دار الكتب و الوثائق القومية، ط الاولى،١٤٢٣ه.

فکاهه و طنز پردازی در آثار ابوحیان توحیدی

مهدی عابدی[١]، عبدالغنی ایروانی زاده[٢]، نصرالله شاملی[٣]

چکیده

طنزپردازی و فکاهه، قلمرو فراخی است که گاهی پژواک دردها و دشواری‌ها و مصائب زندگی است و بی‌شک نفس در رنج و گریبان‌گیر حوادث، با ابزار طنز و لطیفه‌گویی، خود را از این گرداب، رهایی می‌بخشد. ابوحیان از جمله افرادی است که به واسطهٔ طنز و لطیفه‌گویی، جان درعذاب و گرفتار خویش را با وجود بدبینی به زندگی، می‌رهاند و آسایش می‌بخشد.

لطیفه‌گویی ابوحیان از زبان زنان، اغلب نابهنجار و ناپسند است؛ چرا که به علت سرکوب شدن غریزه جنسی و محروم بودن از مهر همسری و مادری، زن را تنها ابزار لذت و بهره‌مندی جنسی می‌بیند! همچنین، لطیفه‌گویی او از زبان کودکان با نوع گویش کودکانه او بسیار، قابل‌توجه است.از موارد دیگر طنزپردازی ابوحیان، شیفتگی او به نکات اخلاقی و لطیفه‌های لفظی و بازی با الفاظ است که گواهی بر هوشمندی و حاضر جوابی صاحب آن است. نوع دیگر لطیفه‌ای که ابوحیان مورد توجه قرار می‌دهد، ذکر لطایفی از زبان بخیلان و طفیلی ها و شکم‌بارگان است که در جنبه‌هایی، گوی سبقت را از پیشوای خویش، جاحظ، ربوده است.

بخش واپسین لطایف ابوحیان، تهکّم و تصویر کاریکاتورگونه از افرادی همچون صاحب بن عباد و غیره است که عیوب افراد، بزرگ‌نمایی و برجسته می‌شود. این لطایف نشان می‌دهد ابوحیان خنده را جایگزین گریه می‌کند و لطیفه‌گویی او آمیخته به نوعی تلخ‌کامی نهفته در زندگی اوست.

واژگان کلیدی: فکاهه، تهکّم، کاریکاتور، بدبینی، خیلان.

---

١. دانشجوی دکترا دانشگاه اصفهان

٢. استادیار دانشگاه اصفهان

٣. دانشیار دانشگاه اصفهان